

الجواهري فارس حلبة الأدب ”مقتطفات“

علي حسين القيسي

عشرات الكتب ومئات البحوث والمقالات كتبت بلاشك، عن شاعر العرب الأكبر محمد مهدي الجواهري (1901 - 1997)... ومن المؤكد أن كتاب (الجواهري فارس حلبة الأدب) الصادر حديثاً عن مؤسسة المدى بـ 279 صفحة للديب المخضرم محمد جواد الغبان، لن يكون آخرها..

... ولم تترك تلك الكتب المعتبرة شيئاً لم تذكره عن الجواهري، ولكل واحد منها خاصية تميزه عن غيره.. ولكن كتاب الغبان يحمل ميزة فريدة تفتقدها الإصدارات السالفة، تتمثل أولاً في معاشية صاحبه مع الجواهري عقوداً طويلة، ومرافقته إياه في مرحلة مهمة من تاريخ العراق الحديث، عند تأسيس اتحاد الأدباء العراقيين ونقابة الصحفيين، فضلاً عن أنه والجواهري من مدينة واحدة... وبذلك يكون قول ميشيل فوكو الفيلسوف الفرنسي المعروف: (إن تأليف كتاب ما يعني من زاوية معينة الغناء كتاب سابق) قد تحقق!!..

يزيح الغبان في كتابه الستار عن وجه القوائد الجواهرية ويفك أسرارها إذ هو واحد من أفراد معدودين يملكون مفتاح ذلك. ففي كل قصيدة تقرأها للجواهري تجد نفسك أمام بناء هندسي فخم، متكامل البناء على أحسن ما يبدهه المهندسون الحاذقون، وترى بنفسك أيضاً أن ذلك البناء الشامخ مسكون بالأحاسيس، عامر بالمشاعر التي تلتهب وتتوهج في حنايا نفس ذلك الشاعر. ولا تستغرب كذلك عند قراءة قصائد الجواهري أن تسمع في كل بيت من أبياتها نبض الجواهري... وذلك من أكبر وأعظم ما يميز به شعره النافذ... بهذه الكلمات الساخنة المشحونة بالحب والإعجاب يسطر محمد جواد الغبان صفحات كتابه (الجواهري فارس حلبة الأدب)... وقبل أن نغوص في سطورها ينبغي أن نعرف سبب التسمية التي يقول الغبان عنها: ليست من عندياتي ولا من مبتكراتي، إنما هو لقب منحه إياه خالنا المغفور له الشيخ محمد علي اليعقوبي (عميد جمعية الرابطة الأدبية) في النجف، في عشرينات القرن العشرين، وبالتحديد عام 1926 يوم كان الجواهري في حوالي الخامسة والعشرين من عمره، وقد نظم تقريباً لديوان خالنا الشيخ اليعقوبي (المقصورة العلية في السيرة العلوية) المطبوع عام 1926... وقد نشر الشيخ اليعقوبي ذلك التقريظ بين التقاريف الأخرى في آخر الديوان واطلق في مقدمته التقريظ لقب (فارس حلبة الأدب) على الاستاذ الجواهري... والشيخ اليعقوبي نفسه استوحى واستلهم ذلك اللقب من اسم ديوان صدر للجواهري عن مطبعة (دار السلام) في بغداد عام 1923 وهو ديوان (حلبة الأدب) الذي تحدى به الجواهري كبار الشعراء، وذلك في معارضة شعرية جمع بين القصيدة الأصلية ومعارضته لها وهو في أوائل العشرينات من عمره.

... يسترسل الغبان في كتابه الذي سيكون له شأن كبير سواء حين يذكر الجواهري أو يذكر شعره.. فقد قسم الكتاب الي ثلاثة فصول بعد تمهيد إضافي جعل عنوانه (ملاحم من شخصية الجواهري وشعره) اتسم بالسلاسة وعمق الدرس الأدبي الرفيع وهو يتنقل بين القصائد وحكاياتها الجميلة مع ما عرف عن الجواهري من فحولة وشموخ، ويقول الغبان: لا احسب أن هناك شاعراً آخر غير الجواهري - مهما كبر شأنه وعلا قدره، معاصراً أو غير معاصر - يرتقي في شعره الي مستوى شعر المتنبي في شموخه وعنفه وعنفوانه وتمرده وطغيان الـ (أنا) على شعره، فالزهو والعجب بالنفس والتعاضم والطموح وعلو الهمة صفات لم تظهر جلية واضحة في شعر شاعر عربي آخر - على امتداد مساحة الشعر العربي - كما تجلت واتضحت في شعر ابي الطيب المتنبي الذي بقي يتفرد شعره بتلك الصفات من القرن الرابع الهجري - العاشر الميلادي الي القرن الرابع عشر الهجري - العشرين الميلادي. وقد

تجلت ظاهرة الجواهري الذي كان بمستوى المتنبي: شعرا، وشخصية، وطموحا، وتمردا، وعفوا، وصخبا، لانه كان صنو المتنبي في كل هذه الصفات التي امتاز بها شعرهما معاً، مما لم يشاركهما فيه شاعر عربي اخر على كثرة وعظمة ما حفلت به العربية على مدى اجيالها من شعراء عظام تتلألاً اسمائهم على صفحات الابداع والخلود...

يمثل هذا الحب والاعجاب بشعر الجواهري يغوص بنا الغبان بين لآليء القصائد والمعاني في بيئة النجف، حيث المدرسة الاحيائية والمقارنة فيها وبين الاحيائية المصرية... ثم يحدثنا ايضا بين دفتي كتابه عن شعراء النجف في مطلع القرن العشرين وتفوق الجواهري على شعراء جيله بشهادة الرصافي، والمقارنة بينه وبين المتنبي، ومنازلة الجواهري لشوقي ولأيليا ابي ماضي وغيرهما. ويتسلسل الغبان بعدها في كشف اللثام عن اسرار قصيدة الجواهري (كما يستكلب الذيب) وقصيدة يا ابن الفراتين وغيرها. والغبان من المؤمنين بأن الجواهري؛ ظاهرة كونية مدهشة وقد يمر ألف عام حتى يظهر (جواهري) جديد....

اما القسم الثاني من الكتاب فقد ضم حكايات عبقة من التاريخ الذي لم يسجله تاريخ!! منذ ان تعرف على الجواهري في اول لقاء وذلك في احتفالية تأبين الوطني الغيور جعفر ابو التمن عام 1946، وحتى وفاته، في مرحلة طويلة مزدحمة بالوقائع والاحداث وفيها صور لن تتكرر ابدا، ومنها: في عصر يوم من ايام ذلك الصيف التموزي في بغداد كنت في زيارة خاصة للاستاذ الجواهري عام 1959، وبينما كنا نتجاذب اطراف الحديث فوجئنا بسماع تصفيق حاد في الشارع مصحوب بزغاريد النساء وهتافات الرجال ممن كانوا في الشارع في تلك اللحظات، وقد ملأت اصداء تلك الاهازيج والهتافات اجواء البيت. وتساءلت عيوننا قبل افواهنا عن ذلك الذي يحدث بالقرب منا في الشارع... وبادر الجواهري يسأل الحاضرين قائلاً (هاي شكو.. خير ان شاء الله) وقبل ان ينتهي من سؤاله دخل علينا مسرعا من ينادي بأعلى صوته ويفرح غامر قائلاً: (هذا الزعيم عبد الكريم قاسم جاء يزور الاستاذ الجواهري). وقمنا مسرعين مع الشاعر الكبير لنستقبل الزائر الكريم، ونحن مذهولون من تلك المفاجأة السارة، وقبل ان نصل عتبة الباب الخارجية للمنزل فاجأنا الزعيم داخلا، وابناء الشعب من سكنة المحلة، رجالا ونساء واطفالا - يحدقون به وهم يحيونه ويهتفون له بالنصر المؤزر. والتقى الجواهري بعبد الكريم قاسم في الباب فكان ثمة عناق حار وعبارات ترحيب تطفح عليها العفوية والصدق، وكانت تلك بالنسبة لي أول مرة أرى الزعيم فيها... وكان مما قاله الزعيم في تلك الجلسة: ان هذه الزيارة للاستاذ الجواهري لايهدف منها الا ان تكون تعبيراً صادقا عن اهتمام الثورة بالادب والادباء وتقديراً لهما... وتلك واحدة من عشرات الحكايات التي ضمها الفصل الشيق الذي شمل ايضا اسرار تأسيس اتحاد الادباء ونقابة الصحفيين... اما الفصل الاخير فقد ضم القصيدة المئوية في رثاء الجواهري التي كتبها الغبان بمداد الوفاء ومطلعها:

أترى لواء الشعر بعدك يخفق، ويجيء من يسمو به ويحلقُ
أترى الرياض المقفرات ستزدهي، وتعود تنفع بالاريج، وتعبقُ
وأخيراً فإن الكتاب بما فيه؛ صفحات ادبية شيقة لن تدع المتلقي يأخذ نفسه وحتى يأتي عليها
الواحدة بعد الأخرى.

- نشرت على موقع كتابات الألكتروني في تموز (يوليو) 2008
- أضيفت إلى صفحات موقع الجواهري بتاريخ 2008/8/12